بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾...:

قولة جاهلة قاحلة من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في استحالة الإيمان بالقرآن وما بين يديه من كتاب! فحتى لو تأكدوا - فعلاً - من بطلانه لكانت الاستحالة باطلة، حيث الحال لا تحكم على الاستقبال، فرب حال ترى أنها من المحال لقصور في العلم أو القدرة، ثم يتحول في الاستقبال من راجحة الأحوال.

أجل في الضروريات العقلية الثابتة لدى كل عاقل قد يصح القول الصامد «لن - أو - حتماً» مستحيلاً أم واجباً، وأما غير الضروريات البدائية، فضلاً عما تدل بنفسها على حقها كما القرآن، فكيف يصح القول ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ اللّهم إلّا أن يخبروا بمدى لؤمهم وعنادهم للحق، دون قصور في القرآن، ولكنهم على عنادهم قد يتحولون إلى حالة أخرى!

فـ«لن» في مثل القرآن ليست لتَصْدُق أو تصدَّق على أية حال، وهم يرفضون بها حاضر الإيمان ومستقبله بالقرآن، عناداً.

فالقرآن بنفسه شاهد صدق يفرض على من يتدبره الإيمان به، ويرجح لمن لم يتدبر، وأما إحالة الإيمان فليست إلّا من إغلاق باب العقل والفطرة لحدٍّ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[١]!

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هنا هم المشركون وأضرابهم من غير الكتابيين مهما كانوا موحدين، و﴿بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ صيغة دائبة في سائر القرآن عن سائر كتابات السماء، إلّا فيما تقرن بقرينة تدل على الحياة الأخرى ﴿. . . ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ . . .﴾[٢] فإنها الحياة الأخرى بعد مستقبل الأولى، ولكن ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تخصه بضميرها المفرد ولا تخصه الأخرى، إضافة إلى قرن ﴿بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ - ﴿بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ فما بين يديه قرآن غير هذا من التوراة والإنجيل، مهما كان إطلاق القرآن منصرفاً إلى هذا القرآن!

ولما وصل الحوار إلى هذه الحال من التعنُّت النكراء، فلا تفيد بعدئذ مواصلة الحوار، من هنا يستعرض حوار أهل النار، كجواب لهم عما هنا:

﴿. . . وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾:

ترى كيف ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ . . . و«لو» تحيل مدخولها؟ علّها الرؤية يوم الدنيا، فـ«لو» تلوي للترجي: يا ليت ترى في الحال حوارهم البائس في الاستقبال؟ وكما في ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ . . .﴾[٣] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[٤] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾[٥] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[٦].

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٣٠.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.
(٦) سورة الانفال، الآية: ٥٠.

ثم لمّا يحضر واقع المسرح للأخرى كأنه الحال ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾[١] ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾[٢] ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾[٣].

. . . ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في العقائد الرئيسية كالذين ذكروا ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ زجاً في سجنه وقفة الحائرين الذعرين نظرة الحكم من رب العالمين ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ الظالم المستضعف إلى الظالم المستكبر وعكساً، حيث يلوم بعضهم بعضاً، ويؤنب بعضهم بعضاً، إلقاء لتبعة ما هم فيه على بعض، و﴿ٱلْقَوْلَ﴾ هو ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ مقصرين لا قاصرين للذين استكبروا «مقصرين لولا أنتم لكنا مؤمنين»! وليست التبعة إلّا عليكم، إذ كنا نحن قاصرين، ولو خلينا وأنفسنا لكنا مؤمنين.

قولة جاهرة اليوم وقد سقطت القيم الزائفة وواجهوا واقع العذاب، وهم قبل اليوم لم يكن يخلد بخلدهم أن يقولوها، حيث التخاذل، والضعف القاصد، والاستسلام المصلحي، وبيع الحرية والكرامة بالأركس الأدنى، كانت تحول دون هذه القولة الجاهرة، وهنا الجواب الحاسم من الذين استكبروا.

﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾:

والهدى تحل محلها من قلوب صافية ضافية، فليست لتُصد بعد إذ جاءت ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ قبل أن نصدكم، فقد أجرمتم ثمرة الحياة تغاضياً عن فِطركم وعقولكم، وتحكيماً لحاضر شهواتكم، ثم نحن واصلنا في

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٩.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٧.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

إضلالكم: ظلمات بعضها فوق بعض، فنحن وإياكم صادون عن الهدى على سواء، فإن كنا نحن مجرمين مستكبرين، فقد كنتم أنتم مجرمون مستضعفون، وكل إناء بما فيه يرشح!

ثم يرجع المستضعفون بما يخفف عنهم في زعمهم عذابهم، ويثقل على المستكبرين:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾...:

لو أننا بقينا على جرمنا دون مكر وأمر منكم لخف الوطء عنا وكنا أقل منكم عذاباً ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ من ناحية ونحن ضعاف العقول، و﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾... من أخرى وأنتم أقوياء، ولكن الذي جاءته الهدى على بينة كيف يمكر، أم الذي يؤمن بها كيف يكفر حين يؤمر؟ والكفر والإيمان من الأمور القلبية لا إكراه فيها...

هناك يدرك الفريقان من الظالمين أن ليس الحوار ليثمر تخفيفاً عن عذاب أم تأجيلاً، فلكلٍّ جريمته وإثمه ما هو ظالم قدره، ثم على المستكبرين تبعة زائدة لإضلال الآخرين، والمستضعفون عليهم وزرهم باتباعهم مقصرين، لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين، كما لا يعفي المستكبرين أن هؤلاء كانوا مجرمين.

فهنالك تُختم الحوار برؤية العذاب وحيث لا تفيد الحوار:

﴿...وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ كلٌّ من المستضعفين والمستكبرين ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهي في الحق تلكم الأغلال التي غلواً بها أنفسهم، غل الاستضعاف وغل الاستكبار، وأين غل من غل؟ وأين عذاب من عذاب؟ ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ غلًّا بغل:

و﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1]!

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

فلأن ماهية الرسالات الإلهية وطبيعتها هي الحفاظ على العدل بين الناس، والقضاء على تطاولات المستكبرين والطغاة والمترفين في اللذات والحيونات، لذلك كانت تعارض منذ بزوغها من قبل المترفين فلم تكن - إذاً - خلاف ما يزعم - بجانب الرأسمالية وتخديراً للمستضعفين[2] فـ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ دون تأمل وتحليل، وتغاضياً عن كل دليل، هي كلمة المترفين على مر الزمن الرسالية، معادة مكرورة في كل قرية، حيث الترف يغلظ القلوب ويفقدها كل حساسية عقلية ولمسة فطرية، لحد يحسبونهم هم الموضوع الرئيسي والمحور الأساسي في الحياة، وأن أموالهم وأولادهم هي مانعتهم من العذاب في الأخرى كما تمنعهم في الأولى!:

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾:

ولو كان هنالك عذاب فإنما هو للمستضعفين فلنا الترف في كل طَرَف من أطراف الحياة: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[3].

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٢) الدر المنثور ٥: ٢٣٨ - أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وأبي حاتم عن ابن زيد قال كان رجلان شريكين خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم فترك تجارته وأتى صاحبه فقال له دلني عليه وكان يقرأ الكتب فأتى النبي ﷺ فقال: إلى م تدعو قال ﷺ: إلى كذا وكذا قال: أشهد أنك رسول الله قال ما علمك بذلك قال: إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم فنزلت هذه الآيات.. فأرسل إليه النبي ﷺ أن الله قد أنزل تصديق ما قلت.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤١.

وي! كأنما الأموال والأولاد هي التي تقربهم إلى الله زلفى فلا يعذبون، وليست هي من حسن أعمالهم، ولا أنها منهم حتى ولو كانت حسنة لهم:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

إنهم يحسبونهم أن بأيديهم بسط الرزق وقدره، وهم يرون كثيراً ممن يسعى مجداً فلا يجد سعة إلّا قدراً، وآخرين لا يسعون كثيراً - أم - ولا قليلاً ولهم بسطٌ في الرزق، وهذا لا ينافي الضابطة المطردة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] فإنما بسط الرزق وقدره في أكثرية ساحقة خارجان عن مدى السعي والبطالة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حيث يزعمون بسطه بما هم يبسطون وقدره بما هم يقدِّرون ويقدرون! فمسألة بسط الرزق وقدره هي من أهم ما تحيك في صدور كثيرة، فحين تتفتح الدنيا بزخارفها على المبطلين، ويحرم بجنبهم الآخرون، يخيَّل إلى الجهال أن الله ليس ليغدق على أحد إلّا وله عنده زلفى، ولا يغلق على أحد إلّا البعيدين عنها، وذلك حين ما تختل الموازين والقيم، وتختلط القيم الروحية والمادية فتخلف فوضويات من الظنون الرديئة، ولكن:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

فـ ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[2].

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

فإنما تقربكم إلى الله زلفى، ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الإيمان وعمل الصالحات، فالأموال والأولاد التي تستخدم لمرضاة الله هي خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ عملاً مضاعفاً فأصل الإيمان وعمل الصالحات عمل، والأموال والأولاد التي تستعملهم في صالحات عمل ثانٍ[1] فما بقيت صالحة خيرة فلك منها ثواب، وكما على الذين يعملون طالحات، ويستعملون أموالهم وأولادهم في طالحات، أولئك لهم ضعف العذاب، فإنما الجزاء خيراً وشراً على قياس العمل ضخامة ووخامة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ مستعملين أموالهم وأولادهم في سعيهم الفاسد الكاسد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وكما كانوا في بواعث العذاب محضرين، حضوراً بحضور، بل هو هو نفس الحضور فـ ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾:

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ في سبيل الله أموالاً وأولاداً، وأعمالاً وأقوالاً وأحوالاً، ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾: إبدالاً بالحسنى وهو خير الرازقين في الأولى وفي الأخرى، وليس بسط الرزق لأهل الطغوى إلّا امتحان الامتهان ﴿. . . إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3]!.

---

(١) القمي ذكر رجل عند أبي عبد الله عليه السلام الأغنياء ووقع فيهم فقال عليه السلام: اسكت فإن الغني إذا كان وصولاً لرحمه باراً بإخوانه أضعف الله له الأجر ضعفين لأن الله يقول: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ . . . إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ . . .﴾ [سبإ: ٣٧].

(٢) سورة الطور، الآية: ١٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾:

خطأٌ في خطأ لمن كانوا يزعمونهم يعبدون الملائكة، ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ﴾ ويحسبونهم ملائكة حيث أروهم أنفسهم ملائكة ولكي يُعبدوا، وليس الملائكة ليروا أنفسهم للموحدين، فضلاً عن المشركين الذين يبغونهم أن يكونوا لهم عابدين. أم ﴿كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ﴾ حيث أمروهم أن يعبدونا، فالمعبود الأصل لهم هم الجن دوننا، إذ لم تكن هناك صلة بيننا وبينهم حتى يعبدونا دون وسيط.

وعلى أية حال ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أن يُعبد مِن دونك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ۖ﴾ تلي كل أمورنا، وتعلم ما نخفي وما نعلن، فتعلم أننا ما كنا نرضى هذه العبادة بوسيط ودون وسيط، فقد كانت عبادتهم الحمقاء هباءً على هباء ونحن - كما تعلم - منها براء! فإنها عبادة فاضية فوضاء.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿لَا يَمْلِكُ﴾ نفي استغراق في ذلك اليوم، فالنفع والضر مسلوبان لكل أحد عن كل أحد عابداً ومعبوداً إلّا الله ثم ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ذوق العذاب فـ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]! وهنا تختم الجولة في قضية المبدأ والمعاد، وإلى جولة لما بين المبدأ والمعاد:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ۚ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾:

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.

آيات بينات هي في دعواهم إفك مفترى وسحر مبين، مقابلة الحق المبين برواسب غامضة من آثار مضت وتقاليد غيرت دون قوام متماسك على أي أساس!

فآباؤنا هم الأصلاء في هذا المسرح وسواه، و﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ وكفاه كذباً، فـ«ما هذا إلا كذب مفترى» على الله إذ لا يرضى أن نترك آباءنا -.

ومن ثم في مواجهة عامة لآيات الله البينات ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

فثالوث القولة الفاتكة «ما هذا - ما هذا - إن هذا» تتبنى أصالة تقاليد الآباء لا لشيء إلّا أنهم آباء! أوَ لم يكن الآباء الموحدون الإبراهيميون هم من آبائهم؟ فليشكوا على أقل تقدير في دعوة التوحيد فيتحروا ويتخذوا الأحرى في عقولهم!.

وليتهم أوتوا من قبل كتباً يدرسونها أم أرسل إليهم من قبلك من نذير، حتى يرتكنوا في هذه السلبيات على ما أوتوا! ولكن:

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾:

فلقد عاشوا فترة انقطاع الوحي والرسالة، فلا كتب يتعاهدون ولا رسل، فإن يكذبون هؤلاء فقد ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهم أولاء ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ هؤلاء الغابرين من علم ومال وقوة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ي عليهم على قوتهم من إهلاك وتدمير، فما أنتم بشيء تذكرون وجاههم!

وقد كانت قريش تعرف بعض هذه المصارع الغابرة، وهنا التهديد بتلك الغابرة، ولكي تنتبه الأجيال الحاضرة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟

كذلك ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾ ما أرسلنا من نذير من قبلك - ﴿مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ الحاضرين في مسرح الرسالة المحمدية ﷺ فإنه أوتى ما أتوا وزيادات خالدات[1].

(١) البرهان ٣: ٣٥٣ - القمي في الآية قال: كذب الذين من قبلهم رسلهم وما بلغ ما آتينا رسلهم معشار ما آتينا محمداً وآل محمد ﷺ.